دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أصول وواقع التعمير في الجزائر
المصدر:	مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة زيان عاشور بالجلفة
المؤلف الرئيسي:	عبدالفتاح، العلمي
المجلد/العدد:	مج11, ملحق
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الشهر:	جويلية
الصفحات:	148 - 161
رقم MD:	928795
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, HumanIndex
مواضيع:	الجزائر، التنمية المستدامة، النمو السكاني، التنمية الحضرية، التخطيط العمراني
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/928795

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أصول وواقع التعمير في الجزائر

د. العلمي عبد الفتاح
جامعة سكيكدة

ملخص: تتحكم في عملية التعمير وتوزيع السكان عدة عوامل طبيعية، تاريخية واقتصادية وفق كبرى المناطق الجغرافية في الجزائر من تل وهضاب وصحراء.

فتكتظ المنطقة الساحلية والمناطق القريبة منها ثم تقل تدريجيا كثافة السكان مرورا بالهضاب ونزولا إلى أقصى الجنوب إلى أن تنعدم في بعض جيوب الصحراء بسبب قساوة المناخ وقلة موارد العيش والعمل. لكن، في الآونة الأخيرة، ومنذ ما يقارب عشرية من الزمن، بدأت ملامح التعمير تتغير تدريجيا بفعل نشوء المدن الداخلية الصغرى والمتوسطة، إلى جانب نشأة حديثة لنسيج عمراني حول المدن الصحراوية القديمة تحت تأثير عوامل التنمية والتجارة وصناعة المحروقات مسجلة هنا وهناك وتيرة نمو حضري تتفوق على مدن الشمال بصفة عامة.

Résumé : L'urbanisation et la répartition de la population sont fonction des facteurs géographique, historique et économique dans l'espace algérien qui se distingue par trois grandes régions climato- géographiques, à savoir le Tell, Hauts plateaux et Sahara.

Le littoral algérien et ses proches régions connaissent une densité démographique très élevée, mais cette dernière décroît progressivement en descendant vers les Sud passant par les Hauts plateaux sous l'effet des aléas climatiques et la pénurie des ressources de vie et de l'embauche.

Cependant, et depuis une décennie, nous observons quelques signes de changement en matière d'agglomération et d'urbanisation sous l'effet d'évolution des petites et moyennes villes dans l'intérieur du pays. En plus, la genèse d'un tissu urbanistique autours des anciennes villes sahariennes qu'on peut d'ores et déjà identifiée aux effort de développement , au commerce et à l'industrie des hydrocarbures. Cette évolution enregistre, çà et là un rythme de croissance urbaine dépassant parfois les villes du Nord.

تمهيد: يمثل إقليم الجزائر كلاً طبيعيا جد متباين، حيث يتألف، من الشمال إلى الجنوب: من السهول الساحلية، ومن جبال الاطلس التلي، ومن الهضاب العليا وجبال الاطلس الصحراوي التي تحدد في مجملها مناطق أو أقاليم مناخية نباتية كبرى: التل، الهضاب، السهول والصحراء. لكن هذا الوسط يتميز اساسا بصفة عدم توازن تمركز السكان حيث تتفاوت فيه بصفة كبيرة الكثافة السكانية. وتبلغ الكثافة السكانية الوسطى 15 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد (15 ن/كلم^2) لكن بتفاوت كبير من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب بحسب هذه الوحدات الجغرافية الطبيعية.

وتظهر الجزائر كبلد قليل التعمير مقارنة ببلدان منطقة حوض البحر الابيض المتوسط أين تتعدى الكثافة السكانية الوسطى اكثر من 110 ن/كلم^2. لكن هذه الكثافة الوسطية الضعيفة تخفي وراءها تفاوت على مستوى التعمير بحسب المناطق والجهات، فلا تتعدى 2 ن/كلم^2 في الجنوب مقابل 274 ن/كلم^2 على الساحل في الشمال(ONS, 2011,12). يجب أن ننبه أن الارقام المتعلقة بالكثافة توحي بمدى القدرات الاقتصادية والغذائية لهذه المناطق التي في مجملها مكونة من اراضي قاحلة وبمناخ قاس أو بدون أي قيمة زراعية: صحراء، جبال، شعاب...ألخ

أولا. شساعة القطر وتمركز السكان:

إن تنظيم السلطات الاستعمارية للوسط في الجزائر كان قد خلق نوعا من التنظيم الاجتماعي للمكان شديد التأثر بالخصائص الفيزيقية للبلد. وقد أشرنا سابقا إلى كبرى المناطق الجغرافية التي ينقسم إليها الاقليم الجزائري، حيث تنقسم الجزائر إلى ثلاث مناطق كبرى: الاولى في الشمال بمحاذاة البحر الابيض المتوسط وبعمق نحو الجنوب يمتد من 50 إلى 100

كيلومتر من الغرب إلى الشرق، اما الثانية فهي بعمق 200 إلى 300 كيلومتر، بين الاطلس التلي والاطلس الصحراوي، وهي تضم السهول العليا القسنطينية في الشرق ومناطق الهضاب العليا zones steppiques في الغرب؛ أما المنطقة الثالثة فهي الصحراء الشاسعة التي تغطي 4\5 من كامل التراب الوطني.

ويتوزع السكان في الجزائر بصفة غير متوازنة على الاقليم، فبالنسبة للشريط الساحلي (1.9 % من الاقليم أين يتمركز 36 % من السكان (حوالي 274 ن/كلم^2) أين توجد أخصب الاراضي، الوفرة العالية للموارد المائية والثروة الغابية. تمتاز هذه المنطقة بنسبة عالية من الجهوزية من حيث وسائل البنية التحتية كالنقل والاتصال(الطرق، السكك الحديدية، الموانئ، المطارات) إلى جانب كل وسائل التنمية (ماء، الكهرباء، غاز، هاتف) الضرورية للنشاط الصناعي. وتتركز جل الانشطة الصناعية في هذه المنطقة جراء ذلك: 91 % من صناعة الحديد والصلب، الصناعة الميكانيكية، صناعة المعادن والصناعة الالكترونية؛ 90 % من الصناعة مواد البناء، 85 % من الصناعة الكيماوية، 65 % من صناعة الجلود و56 % من صناعة النسيج (CNES, 1998,34)

أما المنطقة السهبية والسهول العليا القسنطينية (3.10% من التراب الوطني)، المحصورة بين سلسلة جبال الاطلس التلي في الشمال وجبال الاطلس الصحراوي في الجنوب، أو ما يعرف بمنطقة الهضاب العليا فهي شبه مشلولة بقساوة العوامل الطبيعية كنقص كمية التساقط السنوي (من 200 إلى 400 ملم امطار سنويا)، غياب شبكة من السدود المتفرعة، اما المجاري المائية فهي عبارة عن وديان أغلبها جاف خلال جزء كبير من السنة. إنها مناطق تشتهر بزراعة الحبوب وتربية الاغنام منذ القديم ؛ لكنها تضم ما نسبته 27 % من مجمل السكان للجزائر(30 ن/كلم^2). وقد استفادت هذه المناطق منذ الاستقلال من استثمارات صناعية كبرى مع نقص فادح في البنى التحتية من طرق وسكك حديدية لكن

جدول رقم1. تطور توزيع السكان والكثافة حسب الجهات والمناطق الجغرافية

المنطقة / الجغرافية	المساحة	السكان بالملايين				البنية النسبية للسكان %			
	%	1977	1987	1998	2008	1977	1987	1998	2008
شمال وسط	1,49	5,93	7,7	9,42	10,7	35,4	33,4	32,3	31,4
شمال شرق	1,33	2,71	3,64	4,55	5,18	16,2	15,8	15,7	15,2
شمال غرب	1,5	2,91	4	4,85	5,63	17,4	17,4	16,7	16,5
كامل الشمال	4,32	11,55	15,34	18,82	21,51	69	66,6	64,7	63,1
هضاب عليا وسط	4,63	0,9	1,31	1,92	2,54	5,4	5,7	6,6	7,4
هضاب عليا شرق	2,25	2,09	3,24	4,23	4,9	12,5	14	14,5	14,4
هضاب عليا غرب	5,85	0,92	1,31	1,57	1,89	5,5	5,7	5,4	5,6
كامل هضاب العليا	12,73	3,91	5,86	7,72	9,33	23,4	25,4	26,5	27,4
الجنوب شرق	15,69	0,95	1,31	1,83	2,29	5,7	5,7	6,3	6,7
الجنوب غرب	31,95	0,27	0,42	0,56	0,72	1,6	1,8	1,9	2,1
هقار . طاسيلي	35,32	0,05	0,11	0,17	0,23	0,3	0,5	0,6	0,7
كامل الجنوب	82,95	1,27	1,84	2,56	3,24	7,6	8	8,8	9,5
إجمالي	100	16,73	23,04	29,1	34,08	100	100	100	100

المصدر: ONS,L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213.

بدأت المنطقة تستفيد من مشاريع ضخمة في مجال بناء السدود وتكثيفها وربطها ببعضها البعض ومد شبكة الطرقات مثل

أصول وواقع التعمير في الجزائر

الطريق السريع شرق غرب في إطار مشاريع تنمية الجنوب والهضاب العليا منذ أكثر من عشرية من الزمن.

أما الصحراء الشاسعة بمساحة تقدر بـ 2 مليون كلم^2 (87.4 % من مجمل التراب الوطني) فهي تتميز بنظام تجمع سكاني جد خاص، على علاقة وطيدة بالخصائص الفيزيقية والمناخية. تحوي هذه المنطقة الجزء الاعظم من الموارد الطاقوية للبلاد وقد نمت بجانب بعض التجمعات القديمة صناعة بترولية ضخمة. كما يُعتبر هذا الاقليم، إلى تاريخ غير بعيد، ضعيف جدا من حيث التعمير السكاني بنسبة 10 % من إجمالي السكان (1.4 مليون نسمة سنة 1977، 2 مليون سنة 1987، و3 مليون نسمة سنة 2008)، أما الكثافة السكانية فهي ضعيفة جدا (1.8 ن/كلم^2) مع تمركز شديد لسكان هذه المنطقة في الجهة الشمالية الشرقية.

جدول رقم2. الكثافة السكانية ومعدلات النمو السكاني حسب الجهة والمنطقة الجغرافية

المنطقة الجغرافية	الكثافة السكانية ن/كلم^2				معدل النمو السنوي الوسطي*		
	1977	1987	1998	2008	87/77	98/87	08/98
شمال وسط	166,71	216,65	264,90	301,18	2,6	1,8	1,3
شمال شرق	85,88	115,60	144,33	163,98	3,0	2,0	1,3
شمال غرب	81,52	112,34	136,37	157,86	3,2	1,7	1,5
كامل الشمال	112,33	149,43	183,28	209,32	2,9	1,8	1,4
هضاب عليا وسط	8,15	11,90	17,42	23,04	3,8	3,4	2,9
هضاب عليا شرق	39,06	60,39	78,79	91,27	4,4	2,4	1,5
هضاب عليا غرب	6,59	9,37	11,24	13,58	3,5	1,6	1,9
كامل هضاب العليا	12,90	19,31	25,43	30,76	4,1	2,5	1,9
الجنوب شرق	2,54	3,50	4,89	6,13	3,2	3,0	2,3
الجنوب غرب	0,36	0,55	0,74	0,94	4,4	2,7	2,5
هقار . طاسيلي	0,06	0,14	0,20	0,27	7,7	3,7	3,0
كامل الجنوب	0,65	0,93	1,30	1,64	3,7	3,0	2,4
إجمالي	7,03	9,68	12,22	14,31	3,1	2,1	1,6

المصدر: ONS,L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213.

* يحسب معدل النمو السكاني السنوي الوطني بقسمة معدلات النمو بين تعدادين متعاقبين على مجموع سنوات الفاصلة بين التعدادين.

لم يكن سكان مدن الجهة الشرقية يتعدى 20 ألف كأقصى حد غداة 1954 بالنسبة لهذه المدن على حدة. مدينة بسكرة التي تعتبر أكبر تجمع سكاني في الجنوب تم إحصاء فيها عند هذا التاريخ أقل بقليل من 20 ألف ساكن، وقد اصبحت تضم في سنة 1998 أكثر من 170 ألف وقد كانت تحتل المرتبة 20 سنة 1954 لتصبح في المرتبة 10 حاليا.

مما سبق يبدو أن الوسط في الجزائر يتميز بتمركز شديد للسكان، حيث يعيش 90 % منهم على 17 % من المساحة الاجمالية من القطر في الشمال والهضاب العليا(أنظر الجدول رقم3). وغم ان هذه النسبة هي في تراجع نسبي خلال السنين الأخيرة لكن الكثافة السكانية في الجزائر وكثافة المدن تتراجعان كلما اتجهنا جنوبا.

الشكل رقم1. تطور نسبة السكان حسب كبرى المناطق الجغرافية بين 1977 و2008

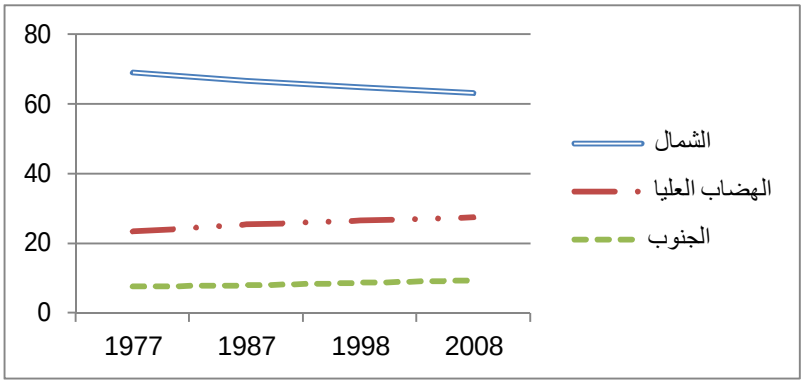

ثانيا. الانفجار الحضري في الجزائر:

لاشك أن الجزائر اصبحت اليوم بلد يفوق فيه عدد سكان المدينة سكان الريف. ورغم النمو المعتبر لسكان الريف لكن حجم سكان المدن قد تضاعف أكثر من 6 مرات عما كان عليه عشية الاستقلال وانتقل خلال 50سنة من 3.7 إلى 24 مليون نسمة أي 65 %. لقد كان نمو سكان المدن سريعا جدا في السنوات الاولى من الاستقلال: مما يضاهي مرتين النمو العام للسكان، لكنه عرف بعد ذلك تراجعا نسبيا من حيث الوتيرة مع بقائه مرتفعا. وتباطء عدد سكان المدن خلال السنوات الاخيرة بصفة ملحوظة رغم الهجرة التي عرفتها المراكز الحضرية التي حدثت نتيجة سنوات "الحرب الاهلية" وما نتج عنها من ضحايا مدنيين. وإذا اعتمدنا على نموذج الانتقال الحضري Baudelle, 2000, 15 ; Moriconi-Ebrard, (1993, 86)، تكون الجزائر في خضم المرحلة الاخيرة من تسارع النمو الحضري.

جدول رقم3. تطور عدد سكان المدن خلال التعدادات السكانية المختلفة

السنة	سكان المدن	سكان الريف	إجمالي السكان	نسبة سكان المدن	معدل التغير	المتوسط %
					سكان المدن	إجمالي السكان
1966	3778482	8243518	12022000	31.4	7.2	3.0
1977	6686785	10261215	16948000	40.0	5.3	3.2
1987	11444249	11594693	23038942	49.7	5.5	3.1
1998	16966937	12133936	29100863	58.3	3.7	2.2
2008	21740920	13325080	35066000	62.0	2.5	1.85

Source: ONS, Evolution des populations et des limites communales 1977/1987, Coll Statistique n°22
ONS, Evolution des agglomérations 1966,1977 et 1987, Coll Statistique n° 97.

إن الاعتقاد السائد حول التمدن في الجزائر (اي نمو سكان المدينة) يتمثل في غلبة هذه الظاهرة في المدن والتجمعات الكبرى. وفي الحقيقة بدأت حركة التمدن بوتيرة سريعة غداة الاستقلال في المراكز الحضرية القديمة مثل العاصمة، وهران وقسنطينة كما تبين من المعدلات المرتفعة لمعدل النمو الحضري(Kateb, 2003,176). لكن هذه الوضعية قد عرفت خلال 3 عشريات الأخيرة تحولات معتبرة حيث تحصلت المراكز الحضرية القديمة على أدنى معدلات النمو الحضري بينما لوحظت أعلى المعدلات في شرق الصحراء والولايات الاقل تحضرا سابقا(الجلفة والمدية مثلا) (Côte, 2005, 36).

. شساعة الاراضي ومشكلة التعريف

لقد تغير التعريف المقدم للسكان الحضريين بتغير الظروف التاريخية، الطبيعية والاقتصادية. لقد كان سكان الحضر يعرفون وفق بلديات النشاط الكامل[1] أي وفق مستوى تمركز الاوروبيون فيها وتأسيس مجلس بلدي تبعا لذلك، وقد تطور عدد هذه البلديات من 47 في تعداد 1948 إلى 48 في سنة 1954 ثم إلى 72 سنة 1960.

بعد الاستقلال اعتمدت مؤشرات أخرى لتعريف سكان الحضر حيث اضيف مؤشر السكان النشطون غير الزراعيون لمؤشرات المستعملة لتمييز التجمعات الحضرية والتجمعات شبه حضرية. لكن ابتداء من 1977 استبدل تعريف البلدية بالتجمع كوحدة حضرية قاعدية، وقد تقرر ذلك بحكم أن البلدية في الصحراء والهضاب العليا تتربع على مساحات واسعة تشمل مدن آهلة ؛ وهذه البلديات تحمل في طياتها سكان حضر وريف في نفس الوقت من الواجب التمييز بينهم. وإذا كان المشكل لا يطرح بالنسبة للتجمعات الساحلية مثل وهران وعنابة التي تحتوي على عدد من البلديات؛ بينما التجمعات الحضرية في الهضاب العليا والصحراء فتتضمنها بلديات لم تعد تصنف حضرية، ذلك لأن هذه البلديات تحتوي كثير من التجمعات التي تضم نسبة كبيرة من سكان الريف في مساكن أكثر انتشارا. فالبلدية تحتوي مساحة شاسعة لكن بكثافة سكانية ضعيفة في الجنوب (1.5 ن/كلم^2) و(51.3ن/كلم^2) في الهضاب العليا وتصل إلى (335 ن/كلم^2) في شمال البلاد. وقد أدى اعتماد عدة مؤشرات في تعريف الحضر إلى بعض التناقضات خلال التعدادات السكانية خاصة تعداد 1977 وتعداد 1987، حيث أنه من بين 260 تجمع بعدد سكان بين 5000 و10000 نسمة في 1987 لم يصنف 181 منها حضريا في حين ان الحد الادنى المعرف بالنسبة للحضر هو 5000 نسمة. والسبب في ذلك يعود إلى مؤشر نسبة السكان النشطون الزراعيون. بينما وجد هناك 49 تجمعا بأقل من 5000 نسمة من مجموع 543 من نفس الحجم الذين تم تصنيفهم حضر لأنهم مراكز للولايات أو دوائر.

كل التجمعات الحضرية خلال تعداد 1998 يفوق عددها 5000 نسمة من بينها 196 تجمع يفوق عدد سكانه 5000 وعدد منهم أكثر حتى من 10000 ساكن قد تم تصنيفهم كسكان شبه حضر semi-urbains. كل ذلك بسبب مؤشرات مثل نسبة السكان النشطون الزراعيون والربط مع شبكات المياه، الغاز والتطهير.

من ذلك يمكن القول أن هناك تقييما ناقصا لمستوى سكان الحضر في الجزائر من طرف المصالح الاحصائية. لذلك يكون من المشروع التساؤل حول تعريف السكان الحضر في الجزائر لاسيما مصداقية حجمهم المقدم من طرف المصالح الاحصائية، وأن أي دراسة أو بحث حول توزيع السكان في الجزائر يجب أن يعتمد على السكان الحضر ويستكمل التحليل بمفهوم التجمع السكاني حتى يسمح بفهم أعمق لأهمية وشدة التركز السكاني وتوزيعهم على مختلف الاقاليم الجزائرية.

وإذا أردنا أن نقوم بخلاصة عن أهم الدراسات حول النظام الحضري وتوزيع السكان على الاقليم مثل دراسة رجيمي ودراسة كيرين باس Guérin- Pace اللتان تتفقان على وجود عمليتين سيرورتين في نفس الوقت وبصفة متزامنة، فمن جهة هناك انخفاض في التفاوت الموجود بين وحدات النسق الحضري، لكن مع نمو أحجام المدن المصنفة كبيرة(نمو من الفوق)، ومن جهة أخرى توازن النسق الحضري من الاسفل، مع ظهور وتطور عددا اكبر من المدن الحضرية (صغيرة ومتوسطة) Guérin-Pace, 1993, 53).

إذا إخذنا سكان التجمعات الكبرى في الجزائر (العاصمة، وهران، قسنطينة وعنابة)، فإننا نجد أن وزنها بالنسبة لكامل سكان الحضر قد تضاءل خلال 30 سنة مضت ؛ حيث أن 1من 6 حضر يسكن إحدى هذه التجمعات الحضرية الاربعة بينما كان تقريبا 1 من 2 منذ 60 عاما. وإذا كان هناك تفوق واضح للجزائر العاصمة بالنسبة للتجمعات الاقل منها درجة مباشرة، فإن هناك استقرار في النسق الحضري بصفة عامة وهي تعود إلى نمو الكثافة فيها عامة. يعني ذلك أن النمو الحضري ينتقل بالتدريج إلى التجمعات الادنى في التسلسل الحضري وذلك رغم تعاظم التفوق الحضري العاصمي.

ويعود هذا التفوق الحضري العاصمي بعد الاستقلال لأسباب ذات علاقة بحصر وتمركز كل وظائف الدولة في عاصمة البلاد، الادارية، الحكومية والدبلوماسية، إلى جانب تطور البنية التحتية والاقتصادية بصفة خاصة ونشوء دورها الصناعي جراء نمو

المناطق الصناعية (الرويبة . الرغاية، 45000 منصب صناعي) (Kateb, 2003, 322) ، فأصبحت بذلك مدينة الجزائر أول متربول وطني. بينما بقيت المدن من الدرجة الثانية تمثل إلى حد ما متربول جهوي مثل مدن كوهران، قسنطينة وعنابة إلى جانب مدن من درجة ثالثة مثل تملسان، باتنة، تيارت وسطيف (Redjimi,2000, 190).

ثالثا. الصحراء: الوجه الجديد للتعمير في الجزائر:

لقد أشرنا سابقا إلى التفاوت السكاني وفق المناطق الكبرى المعرفة سابقا. لكن هذا التفاوت يبدو كأنه يمس كذلك حركة التحضر والنمو الحضري في الجزائر. ويتجلى ذلك في اختلال توزيع التجمعات الحضرية. وتبين المقارنة مع الوضعيات السابقة أن هناك حركية أكيدة في التوزيع الجهوي للسكان وللتجمعات السكانية. فكانت هذه الحركية في صالح الصحراء والهضاب العليا أولا، فقد تراجعت نسبة السكان خلال العشرية بين 1977 و1987 على الشريط الساحلي وأزداد عددهم في الصحراء والهضاب العليا. ويبدو من خلال معطيات التعدادات السابقة أن زيادة التجمعات الاكثر من 5000 ساكن، عما كانت عليه إبان الاستعمار، دليل على أن حدوث تحولات مهمة تتمثل في الاتجاه تكثيف Tendance lourde إلى النسق الحضري على مستوى كامل التراب الوطني(أنظر الجدول رقم 5 ب).

في كامل الصحراء قبل 1954 لم يكن هناك إلا عشرة تجمعات يفوق عدد سكانها 5000 نسمة ولم تكن هناك أي مدينة كبيرة، مع وجود عدد ضئيل من التجمعات الصغيرة والمتوسطة. وقد تركز السكان حينها في الواحات والقصور خلال عشرات السنين، لكن الوضعية تغيرت تماما بعد 50 عاما منذ الاستقلال حيث تأسست شبكة حضرية حقيقية بتجمعات يفوق عددها 8 مرات تلك التي كانت قبل 1954. كما نجد تجمعات عديدة بأحجام مختلفة منها 6 يفوق عدد سكانها 100000 ساكن. جل هذه التجمعات متمركزة في الشمال الشرقي للصحراء بجانب أهم الابار البترولية حيث يبدو أن الشبكة الحضرية هي أكثر كثافة في هذه المنطقة من الصحراء عنها في باقي المناطق قد يكون ذلك على علاقة بنمو صناعة المحروقات في هذه الجهة من الوطن(Côte, 2005, 40).

في المناطق الداخلية المتمثلة في السهوب والسهول العليا تضاعف عدد التجمعات الحضرية التي يفوق عدد السكان فيها ألـ 10000 ساكن إلى 12 مرة بين 1954 و1998. كما نجد 14 تجمعا بعدد أكبر من 100000 ساكن و21 تجمعا بين 50000 و100000 ساكن. بينما التجمعات الاقل حجما نسبيا تبدو اكثر عددا من الاخرى. وتعرف ولايات هذه المنطقة بسلبية فارق الهجرة (Solde migratoire négatif) فيها حتى بداية سنوات 2000 مثل مدية، مسيلة، سعيدة التي استفادت من استثمارات صناعية على قدر من الاهمية خلال مرحلة التصنيع الكبير التي عرفتها الجزائر، مثل المركب الصناعي الصيدلاني لإنتاج المضادات الحيوية بالمدية ومركب العتاد المائي في مدينة مجاورة (بوقرة)؛ وقد تم بناء عدة مؤسسات صناعية للنسيج وغيرها في باتنة (13 مؤسسة)، و9 مؤسسات في سعيدة منها مركب إنتاج الورق وفي تيارت 10 مؤسسات، منها مصنع لتركيب السيارات بالشراكة مع الخارج.

توظف هذه المجموعات الكبرى عموما الالاف من العمال لكنها في حالة اقتصادية مزرية نسبيا ولا تحيا إلا بدعم من الخزينة العمومية. لقد كان زرع هذه الوحدات في مناطق دون ثقافة أو تقاليد صناعية إلى جانب تعرضها إلى صعوبات وعقبات اقتصادية مثل ارتفاع تكاليف الانتاج وقلة الانتاجية وبالتالي زيادة ديونها العمومية.

أصول وواقع التعمير في الجزائر

جدول رقم4: نمو عدد التجمعات السكانية في الجزائر حسب المناطق الجغرافية حسب حجم السكان

حجم التجمعات	الساحل			الهضاب العليا			الجنوب			كامل الجزائر		
	1954	1987	2000	1954	1987	2000	1954	1987	2000	1954	1987	2000
أكثر من 100000ن	2	9	12	1	5	14	0	2	6	3	16	32
100000- 50000	3	7	11	0	14	21	1	5	2	4	26	34
50000 – 20000	9	34	55	3	35	44	0	10	15	12	79	114
20000 -10000	9	45	110	9	36	79	6	11	16	24	92	205
10000-5000	21	121	187	9	94	161	3	19	42	33	234	390
إجمالي	44	216	375	22	184	319	10	47	81	76	447	775

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000 وكيران باس .Guérin-Pace 1999

إن تلك العوامل من شأنها رهن مستقبل هذه المناطق بسبب الاصلاحات الاقتصادية في حالة خصخصة المؤسسات العمومية أو غلقها، مما يؤدي إلى تراجع وتيرة التصنيع في هذه المناطق. عندها سيحدث انتعاش في الحركة الهجرية، مرة أخرى، نحو المدن الساحلية ذات التراث الصناعي الاقوى.

. معالم التعمير في الصحراء

إن ظاهرة توزيع السكان في الجنوب يمكن تناولها من جوانب عدة، أهمها حركة التعمير والتحضر في هذا المنطقة الشاسعة التي تعرف بالصحراء. والصحراء كوسط طبيعي يمتد من المحيط الاطلسي إلى نهر النيل حيث لا يجب عزل الصحراء الجزائرية بجهاتها المختلفة (شرق، غرب ووسط الصحراء) عن كامل هذا القطر الشاسع من المحيط إلى النهر الذي يتسم بميزة واحدة مشتركة آلا وهي الجفاف.

ويعود اصل التعمير في الصحراء إلى متطلبات التجارة والمبادلات التجارية عبر العصور، فمنذ القرن الثامن إلى الثامن عشر نشأت تدريجيا حول ممرات القوافل التجارية محطات لدعمها بما تحتاج إليه من ماء وطعام ووسائل مختلفة، فانشأ الاهالي الابار والواحات، وممرات العبور والمراكز الحضرية. ففي منطقة الجنوب الشرقي تتوزع مدن مثل بسكرة، تُقرت، ورقلة مؤدية إلى أغداس بالنيجر وكانت في نفس الوقت اماكن تجارية نشطة ومنطقة عبور الحجيج إلى مكة المكرمة. في الصحراء الوسطى ظهرت مدن أخرى متأخرة على التجارة مثل الاغواط، غرداية والقولية. في الجنوب الغربي الذي مثلت معالم طرقه القورارة والتوات مع نشوء تيممون وتامنتيت كرباط بين التل من سيجلماسة نحو تومتبوكتو والسودان.

لقد كان لكل واحدة من هذه المدن شأن من حيث عظمة الدور التي لعبته على مر التاريخ مثل بسكرة، وتُقرت وورقلة وغيرها. إن التعمير ودرجة التحضر الحالية لها أصولها التاريخية وسابقة على الاستعمار والدول المغاربية الحالية، حيث أُستعملت تلك المدن والتجمعات السكانية كمراكز لمراقبة الاقطار الصحراوية. لكن شبكة التحضر الحالية قد تغيرت عما كانت عليه، فظهرت مدن جديدة مثل بشار وتامنغست واضمحلت اخرى مثل سدراته، سِجلماسة وتامنتيت. ناهيك عن القطيعة الاحصائية فيما يخص وتيرة التحضر في الصحراء التي عرفت ثورة في القرن العشرين.

. من بين المدن الجزائرية 35 الاكبر حجما، 7 منها صحراوية (بسكرة، ورقلة، بشار غرداية، تُقرت، الواد، الاغواط) ويسكن بها أكثر من 150 ألف نسمة.

يتجلى هذا عند مقارنة معدل التحضر بين الشمال والصحراء، حيث خلال 40 سنة انتقل معدل التحضر في الصحراء

وفي الشمال من 24 إلى 68% ومن 32 إلى 57% على التوالي. بمعنى تفوق للصحراء بـ 10 نقاط، هذا يعني ان الوتيرة هي اسرع في الصحراء. أما عن المقارنة بين اجزاء الصحراء المختلفة فتبين المعطيات أن الجنوب الشرقي قريب من المتوسط في الصحراء، وان الصحراء الغربية هي أكثر ريفية (قورارة، توات) لكن الصحراء الوسطى (الاغواط، غرداية وتامنغست) اكثر حضرا من الصحراء الشرقية.

جدول رقم5. معدل الحضر[2] في منطقتي شمال الجزائر والهضاب العليا مجتمعة والصحراء خلال التعدادات السكانية

التعداد (ت ع س س)	شمال الجزائر (38 ولاية) %	الصحراء(10 ولايات) %
1966	32	24
1977	39	40
1987	49	56
1998	57	68

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000 ومارك كوت Côte 2005.

وإذا كانت هذه الظاهرة مشتركة بكامل اقطار الصحراء من المحيط إلى النهر إلا انها متفاوتة الوتيرة فقد بلغت 80 % في الصحراء الوسطى و62 % في الصحراء الغربية. ومن بين العوامل التي ساعدت على ذلك:

- . النزوح الريفي الذي يؤدي بالسكان إلى المراكز المهمة؛
- . استقرار البدو الرحل الذين بدأوا يتناقصون من سنة إلى أخرى إلى أن انتهوا بصفة شبه كلية اليوم؛

جدول رقم6. معدل التحضر حسب المناطق الكبرى الصحراوية

المنطقة / التعداد (ت ع س س)	صحراء الغرب (3ولايات) %	صحراء الوسط (4 ولايات) %	شرق الصحراء (3 ولايات) %
1966	22	35	29
1977	34	56	35
1987	51	64	54
1998	62	80	64

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000 ومارك كوت Côte 2005.

- الهجرة الداخلية لسكان الشمال في اطار العمل؛
- التجارة والاستثمار خاصة في المنطقة الشرقية من الصحراء حول أبار المحروقات؛

و أخيرا النمو الطبيعي كأحد العوامل المهمة للتعمير في الصحراء، حيث أن هناك تفوق طفيف لمعدل الخصوبة في الصحراء(أنظر الفصل 7).

يمثل النمو الحضري في الصحراء خصوصية بتزاوجه مع موجة من التجديد الزراعي. فقد انتجت موجة الدفع الحضري مرحلة أولى اين اهتزت فيها الزراعة بسبب تنامي عدد الموظفين السامين في ميدان المحروقات إلى جانب تأثيرات الثورة الزراعية. لقد عرفت فترة السبعينات ما سمي "بأزمة الواحات"، لتتعافى الزراعة بعدها خلال سنوات 1980 وسنوات 1990 جراء الاصلاحات التي مستها، مثل السياسة المعدلة للعقار (قانون 1983) ومخطط الوطني لتنمية الزراعة في سنة 2000، وفك العزلة، واستعادة الثقة عند الفلاحين، كلها عوامل ساعدت على حدوث شبه "انفجار زراعي" بعد فترة أزمة الواحات (CNES, 1998, 66).

لقد كان من نتائج ذلك تزايد أعداد النخيل سنة 2000 إلى ما يقارب 12 مليون بعدما كان لا يزيد عن 5.5 مليون نخلة سنة 1959. وقد كان هذا النجاح أكثر اهمية في منطقة الزيبان حيث تضاعفت فيها كذلك زراعة الخضر مرات عديدة باستعمال البيوت البلاستيكية. وقد كانت "المدينة" سندا لهذه الديناميكية عن طريق ضمان مختلف الخدمات المتعلقة بالمدينة، واستثمارات السكان في بسكرة وواد سوف مثلا. على العموم تزاوجت الديناميكية الحضرية والديناميكية الريفية في وسط صحراوي لتخلق حدثا يكاد ينقطع نظيره من حيث التكامل بين الريف والحضر.

إن التحضر في الجزائر يندرج بكل تأكيد في إطار شبكة حضرية وطنية، لكنها داخل هذه الشبكة لا تمثل جزءا بسيطا بل قسما أو شبكة جزئية معرفة ومحددة او انساقا حضرية صغرى تمثلها المدن في الصحراء.

في وسط الصحراء أين تآلفت المورفولوجيا الجغرافية والتاريخ وتكاملتا لتنظيم الوسط الصحراوي في أقطار صغيرة معرفة ومكوّنة من سكان من نفس الاسم مثل المزاب، التُّوات، القُورارة، والصاورة، كما النفزاوة (في تونس)، وفزّان في ليبيا. إنها في الحقيقة شبه بُلدان أو بُلدان صغيرة.

إن هيكلة هذه المدن المجمعة بفضل تضاريس المياه، يتأسس حولها تنظيم بشري جد نشيط بوجود مدينة أُم، تُعتبر عماد الشبكات الحضرية الحالية. ويمكن التأكد من جدية هذا التنظيم من خلال فحص الشبكات الحضرية في منطقة الجنوب الشرقي، حيث انها شبكات صغيرة لكنها جد محددة، ومُهيكلة بقوة. ويمكن ذكر منها شبكة بسكرة بين الزّاب الغربي والزّاب الشرقي ومدعومة في الغرب بطُولقة وأولاد جلال وفي الشرق بسيدي عقبة وزريبات، وتحوي حوالي 50 مقاطعة على الاقل. أما شبكة تُقرت في منطقة واد غير وتضم 30 مقاطعة في العموم. اما الشبكة الثالثة فهي منطقة واد سوف، وهو المكان الاكثر كثافة ويمثل 60 مركزا. كما توجد حول هذه الشبكات مقاطعات اكثر عزلة مثل طالب لعربي، سطيل، مرارة، الحمرية (Côte, 2005, 70).

إن هذه الشبكات الثلاثة مؤسسة على وحدات ترابية صحراوية ترمي بجذورها في عمق التاريخ وتمثل منذ قرون شبكة مهيكلة من الواحات: الزِيبان، واد غير، السُوف. وتمثل المدن الكبرى مثل بسكرة، وادي سوف وتُقرت أوطان حقيقية إلى جانب كونها مناطق نفوذ، ومدن ـ عواصم إلى حد ما، مثل ورقلة وغرداية وبشار.

رابعا. اسباب تفاوت توزيع السكان:

إن خارطة توزيع السكان في الجزائر لا تُقرأ إلا بمزاوجتها خارطة التساقطات السنوية وخارطة المكونات النباتية الكبرى، التي تحدد في الحقيقة كبرى المناطق المناخية- النباتية التي عرفناها سابقا: تل، هضاب وصحراء. أما المنطقة الاكثر تعميرا فهي الخاصة بالتل التي تتوفر على موارد ومناظر متوسطية. فتسمح التساقطات المعتبرة[3] بزارعة الفواكه غير المسقية مثل الزيتون والتين، ثم الحبوب وبعض الخضروات والبقول(العدس، الحمص والفول....) إلى جانب أشكال مختلفة من الرعي وتربية الحيوانات. ويبدو أن هذه الاتاحة الزراعية والقرب من البحر كانا عاملين حاسمين في تركز أغلب المدن الجزائرية وأهمها في هذه المنطقة. وعليه فإن 4/3 من السكان يعيشون على مساحة أقل من 3/1 من شمال الجزائر.

1. العوامل الطبيعية لتوزيع السكان

ويمكن أن نلاحظ بسهولة ذلك التفوق للتساقطات في الشرق عنه في الغرب، فإذا كانت تتعدى 600 ملم في كامل الشمال فإنها ابتداء من منطقة العاصمة نحو الشرق تصل إلى 800 ملم. وعليه فإن نصفا الاطلس التلي يتعارضان بفارق مهم من حيث الكثافة السكانية منذ أكثر من نصف قرن: فإذا كانت تقاس بـ 140 أو 145 ساكن/كم^2 في الغرب فإنها بين 180 و185 في الشرق الجزائري(Despois, 1960,920). لكن عامل التساقط لا يمكنه لوحده تفسير ظاهرة الكثافة

العالية في منطقة القبائل الغربية التي هي رغم ذلك منطقة اكثر وعورة منها في الاطلس الغربي، حيث تتعدى الكثافة في مناطق بجاية وتيزي وزو 218 و273 ساكن/كم^2 على التوالي.

أما السهول العليا الشرقية، ومعها جبال الحضنة والاوراس وأوراس النمامشة، التي تحيط بها من الغرب ومن الجنوب تمثل منطقة عبور بين التل والسهوب؛ فهذه المناطق تعتبر تلية بالنسبة للبدو الرحل لكنها ليست كذلك بالنسبة لسكان الشمال. ويستثنى من ذلك الجبال الاكثر تعرضا لسقوط الامطار حيث ينحدر المعدل الوسطي للتساقطات السنوية إلى 400 ملل وتختلط النباتات السهبية مع النباتات المتوسطية لاسيما في الجنوب والجنوب الشرقي. أما الحبوب فلا تعطي إلا محاصيل ضعيفة في هذه المنطقة ماعدا على الشريط الشمالي لها، كما أن قساوة الطقس فيها والرياح الباردة على مرتفعات محصورة بين 800 و1100 م، لا تلاؤم كثيرا زراعة الاشجار. وتقارب الكثافة الوسطية السكانية76ن/ كم^2، لكنها تبدو أعلى في منطقة الحضنة وفي وديان الاوراسLes vallées de l'Aurès occidental الغربية منها في السهول العليا (Despois, 1960,920)

أما السهول العليا في الغرب والاطلس الصحراوي المتموقعة كلها بين بسكرة والمغرب الاقصى فهي تنتمي إلى ميدان المنطقة السهبية، وهي اصلا سهوبا قاحلة بدون اي سلسلة غابية بارزة ماعدا في جزءا من السلاسل الممتدة نحو الشمال. اما التعمير فهو ضعيف حيث لا تتعدى الكثافة السكانية 20 ن/ كم^2. في الاطلس الصحراوي تصل الكثافة إلى 10 في مقاطعة عين الصفراء وإلى 15 في جبل عمور وبين 15و 20 في جبال أولاد نايل؛ أما على السهول العليا فهي تمتد من 10 إلى 20 في نواحي مشرية وإلى أكثر من 22 في الشلالة؛ بينما ترتفع أكثر في سهول الحضنة التي تتغذى بالمياه المنحدرة من الجبال القريبة وحتى الابعد وتصل الكثافة إلى 30 ن/كلم2.

في السابق كان السكان المستقرين في الصحراء الجزائرية يتركزون حول الواحات ويتوزع الرحل الذين يعيشون على الرعي بصفة شبه مبعثرة لذلك يستحيل تحديد بدقة حركيتهم.

ورغم أن الوجه البشري للصحراء قد تغير باكتشاف المحروقات ونشوء المدن حول أبارها، خاصة في الشمال الشرقي للصحراء(6 ن/كلم^2)، واتجاه البدو إلى الاستقرار. ولا تتعدى الكثافة السكانية الوسطى 3.2 ن/ كلم^2، لكن هل يبقى للوسط الحسابي من معنى في هذه الحالة، باعتبار كل هذه المفارقات الخاصة بالتعمير السكاني؟ فلا وجود لواحات ولا حياة استقرار بدون وفرة للمياه؛ فالعلاقة واضحة ومباشرة بين توزيع واحات النخيل من جهة وعيون الزيبان والابار المتفجرة الارتزية لوادي ريغ وورقلة من جهة اخرى. كما أن جذور النخيل في واد سوف تنغمس في أعماق الرمل لتصل إلى المياه الجوفية داخل ما يشبه محاقن Vastes Entonnoirs حفرها الانسان في الرمل؛ لكن رغم كل هذه القساوة التي تتميز بها الطبيعة إلا أن منطقة المزاب بمدنها السبعة[4] وعلى راسها غرداية، تمثل مفارقة حقيقية بما تحتويه من كثافة سكانية في منطقة تفتقر بشدة إلى الماء (Kouzmine,1991, 122).

إنها أُطر طبيعية كبرى لا تخلو من اختلافات ومفارقات، وليس فقط بين الغرب والشرق ولا بين مناطق وافرة المياه وأخرى غير ذلك. إن طبيعة الارض والتراب الخاصة لا يمكن بأي حال تجاهلها (Kouzmine,1991, 132) فتعرف المناطق السهبية وحتى في التل مساحات شاسعة من الاراضي المالحة والعارية التي تسمى السبخة أو الشط في الغرب واللذان هما غير قابلان للزراعة. وتنتشر على مساحات واسعة ليس في الشمال الشرقي للصحراء فقط ولكن حتى في السهول العليا السهبية والتلية مثل التل الغربي بين سبخة وهران وواد الشلف السفلي. إنها مناطق شبه خالية أو قليلة التعمير كما تظهر على الخريطة. أما المناطق المائية marécageuses فهي في نفس مستوى التعمير مثل حوض الفزارة او المنطقة الشرقية من سهول عنابة التي لا

تصلح إلا للرعي.

بينما لم تمنع وعورة الجبال وفقرها التعمير في مرتفعات القبائل.

وتمتاز بعض المناطق الزراعية بنوعية تربة جيدة مما يرفع فيها الكثافة السكانية. حيث يتبين من الخرائط مثلا الاكتظاظ السكاني القديم في جزء من "الحوض" miocène من منطقة قسنطينة، في سهول جيجل والوديان الفياضانية السفلى للواد الكبير وروافده او كذلك في السهول الجميلة للمتيجة أو عنابة.

2. أثر الاستعمار في توزيع السكان:

إن الخرائط المحفوظة تبين النتائج المترتبة عن تزايد المجموعات السكانية في الجزائر منذ 1830، عند دخول القوات الفرنسية في عهد الملك شارل العاشر إلى الجزائر العاصمة، وموجات الهجرة المترتبة عنها منذ ذلك الحين. وتشير الإحصائيات الفرنسية أنه في تاريخ 1954/10/31، عشية اندلاع الثورة التحريرية، كان عدد سكان الجزائر المسلمين 8487317 فرد، (علما ان سكان الجزائر تحت السلطة العثمانية كان يقارب 3 ملايين فرد)[5]، أما غير المسلمين من الأوروبيين واليهود فكان عددهم 1042409 ساكن، مما يعطي 9529726 ساكن (Yacono, 1954, 278). وتشير الخرائط إلى الاهمية النسبية لسكان المدن كما يتوضح ذلك من بعض الارقام. فكانت نسبة سكان المدن ضئيلة جدا سنة 1830 وقد بقيت على نسبة 14% عام 1886، لتصل إلى 25% في 1954، بمعنى أقل قليلا من المغرب وتونس. لكن واقع الحال ان 79% منهم غير مسلمين، علما أن المسلمين يمثلون 8 مرات عدد غير المسلمين، حيث يتفوقون عددا في كل مكان ماعدا في وهران وعين تموشنت، مدينتين عرفتا هجرة اسبانية كبيرة، وكذلك سكيكدة التي عرفت هي الاخرى استقرار عدد كبير من المعمرين.

لقد كان الأوربيون اقلية في العاصمة وفي عنابة وسيدي بلعباس وغيرها من المدن. للمقارنة مع تونس كبلد حضري منذ فجر التاريخ والمغرب الذي نشأت فيه المدن الكبرى منذ العصور الوسطى، بقيت الجزائر بلدا ريفيا رغم عدد المدن التي نحصيها اليوم والتي لا يعود تاريخ نشأتها إلا إلى الثلثين الاخيرين من القرن التاسع عشر.

لا تتعدى نسبة الاوروبيون الذين يعيشون خارج المدن 20% ويتوزعون جلهم في التل ماعدا البعض تبعا لضرورات الوظيفة العسكرية، التجارية والادارية كما كان حالهم في الصحراء مثلا. فقد وُجد بعض المعمرون في الزيبان، ووادي ريغ ومسيلة لكنهم كانوا أكثر عدد في السهول العليا لاسيما السهول العليا القسنطينية وعلى شريطها الشمالي خاصة. وقد قل عددهم في مناطق زراعة الحبوب، أين تتسع الاراضي والمزارع، بينما يرتفع عددهم في مناطق زراعة العنب (la vigne) وفي المناطق ذات الزراعة المكثفة الغنية والمسقية وزراعة الفواكه والخضر: خاصة على الساحل في وهران، ساحل العاصمة والمتيجة، وفي عنابة وسكيكدة.

على كل حال كان لتوزيع المعمرين أثر كبير على توزيع السكان الجزائريين أنفسهم على المكان، خاصة بالنسبة للذين كانوا يعتمدون على مهنة الزراعة عند المعمرين وأنواعها. ورغم أن توزيعهم يبقى نوعا ما مبعثرا في المناطق المستغلة زراعيا من طرف المعمرين مثل زراعة الحبوب خاصة منذ نمو ميكنة الزراعة Mécanisation de l'agriculture ؛ في منطقة السهول العليا القسنطينية، منطقة عرفت انتشار للاستيطان بسبب هذا النوع من الزراعة. لكن توزيع السكان الجزائريين يرتفع اكثر في مناطق زراعة الكروم لأن هذا النوع من الزراعة يتطلب أربعة أضعاف من العمال الدائمين بالنسبة لنفس قطعة الارض لزراعة الحبوب مثلا ولكن أيضا عددا مهما من اليد العاملة الموسمية: التل الوهراني هي المنطقة التي عرفت هذا النوع من التوزيع البشري. أما بالنسبة للمساحات المسقية وكذا زراعة البقول التي يقتات منها عدد كبير من العمال؛ فقد عرفتها مناطق

الساحل في غرب وهران وكذا منطقة الجزائر العاصمة ومناطق اخرى، مما يعطيها كثافة ريفية تفوق 100 ن/ كلم^2.

وفي عموم الحال وباستثناء زراعة الحبوب، فإن التعمير الزراعي الفرنسي قد ادى إلى زيادة أكبر في كثافة السكان: وقد بين ذلك بويي Boyer. P بالنسبة لولاية الجزائر عندما قارن الخريطتين حول الكثافة البشرية اللتين أنجزهما بالنسبة لسنتي 1866 و1948 حيث يظهر ان سهول منطقة الشلف والمتيجة كانتا تحظيان بتعمير أقل في 1866 منه في 1948 Boyer, (1954, 77) .

لكن أهمية الزراعة والنشاط الزراعي في ذلك الوقت تتمثل ايضا في نشأة المدن، وان كثيرا منها في اصله عبارة عن قرى زراعية تمت تنميتها بموارد المناطق التي تنتمي إليها: وهو حال كثير من المدن التي اصبحت جد مهمة مثل سطيف، سيدي بلعباس وكثير من المدن الاخرى اقل اهمية كعين تيموشنت، سيق، المحمدية، شلف، بوفاريك، برج بوعريريج وقالمة في منطقة الشمال القسنطيني. لقد أدى نشوء هذه المدن التي اسست حول المناطق المستغلة زراعيا إلى توسع الكثافة المتجمعة في هذه المناطق وبلغ العديد منها اكثر من 10000 نسمة.

لكن الخريطة المعتمدة لملاحظة الكثافة الديمغرافية للسكان في الجزائر في ذلك الحين لم تبرز اهمية الاستغلال المنجمي لتمركز السكان. يعتبر منجم الحديد بالونزة ومنجم الفوسفات بالكويف من أهم المناجم التي احدثت تجمعا معتبرا للسكان، على التوالي، 4650 و4000 نسمة من العمال الجزائريين ومن الاوروبيين بنسبة أقل. كما ساهم نشاط الصيد البحري في نشأة بعض الموانئ علما أن ذلك لم يؤثر على الكثافة البشرية بصفة كبيرة باعتبار أن السكان الجزائريين متعلقون بالأرض منذ القدم وأن الصيد البحري لم يكن يعرف انتشارا معتبرا إلا مؤخرا.

نستنتج من كل هذه الوقائع أن ملاحظة الخريطة تكشف لنا أنه من بين 40 مدينة التي يفوق عدد سكانها 10000 ساكن (مجتمعين)، أربعة منها فقط تقع خارج التل الجزائري: بسكرة، باتنة، تبسة وعين البيضاء خلال الفترة الاستعمارية. لكن لا ننسى عدد مهما من المدن الثانوية الي كانت على ضفتين جغرافيتين مختلفتين: بين السهول والجبال، بين التل وبين السهوب أو السهول العليا.

3. العوامل التاريخية:

لا تفسر العوامل الجغرافية والوقائع المتعلقة بحركة الاستعمار إلا جانبا من أشكال التوزيع السكاني في الجزائر، فهي لا تبين أساسا كيف أن أغلبية المناطق الجبلية اكثر تعميرا من السهول(Hamdan Khodja, 52,1983). إنها ظاهرة حيرت المعمرين الاوائل، وقد استمر الوضع على ما هو عليه حتى مطلع القرن العشرين حيث عرفت السهول خاصة ومنها سهول عنابة ومتيجة حركة استيطان سريعة. كما تشهد الكتل الجبلية في شتى أنحاء التل الجزائري تعميرا قويا وغير عاد مثل الكتل الجبلية التراة في الغرب ولكن، خاصة مناطق القبائل (المنطقة الوسطى من قبائل جرجرة، ومنحدرات السفلى لواد الصومام وبلاد بو سلام والبابور، والمنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي لجيجل أيضا)، وفي الحقيقة يبدو وكأن كل الاطلس يعرف ارتفاعا في الكثافة السكانية الوسطية. (Despois, 1960,918) ويمكن طرح نفس السؤال عن منطقة واد مزاب التي عرفت استقرار الالاف منذ مئات السنين في مدنها "السبعة" منها خمسة متجاورة مع بعضها البعض على ضفاف واد من هضبة كلسية تشح من الماء في وسط صحراء قاحلة.

لقد كانت السهول، سواء السهول العليا او السهول التلية المحصورة بين الجبال، على مر القرون الوسطى، جراء الفتوحات الاسلامية خلال القرن السابع الميلادي والحركات البدوية في القرن الحادي عشر، مناطق عبور الفاتحين والغزاة وكذلك مناطق ذهاب وإياب للجيوش وتنقلات القبائل في اطار المغرب الذي تتقاسمه دول متناحرة (Carette et Warnier). نتج عن كل

ذلك ليس فقط اختلاط كبير وتزاوج بين السكان لكن كذلك انعزال جزء منهم في مناطق جبلية اكثر امنا بحكم تعذرها على الفرسان والرعاة البدو لوعورتها. لكن هؤلاء الرعاة البدو الفرسان قد احكموا سيطرتهم ليس فقط على المناطق السهبية والصحراء ولكن ايضا على سهول التل التي كانوا يستعملونها لرعي قطعانهم ومخازن غلتهم، وتحولت مع مرور الزمن إلى مناطق تقل فيها الزراعة ما عدا زراعة واسعة للحبوب وتربية الحيوانات. ولم تكن هذه المناطق آهلة كثيرا وتبين الخرائط التي خُطت في نهاية القرن 19 ذاك الفراغ الذي يميز حتى مناطق مثل سهول واد الشلف والمتيجة.

أما سكان الجبال الذين بقوا دائما بعيدين نسبيا عن التأثيرات الاجنبية وعن تجاوزاتها مما تعرض له سكان السهول جراء مرور الجيوش وتدخلات البدو الرعاة ونزاوتهم الغازية. في نفس الوقت فقد حافظت هذه المجموعات بأعدادها المعتبرة على لهجاتها وعاداتها البربرية لاسيما نشاطها الزراعي الاقل توسعا منه في السهول. فقد اهتمت بزراعة الاشجار المثمرة مثل الزيتون والتين "مزاوجين" تربية البهائم وزراعة الحبوب. إضافة إلى ذلك فإن الترارة والقبائل الغربية قد كانوا جد نشطين فكثير من الحرف وصناعتها حتى كادوا يحولون مناطقهم في أعالي الجبال إلى "مناطق صناعية". قد يكون هذه الانشطة الاقتصادية من بين العوامل التي مكنت السكان في الجبال من البقاء بكثافة في قرى واستقبال موجات هجرة عن طوع او كره. هذا ما يفسر الفرق غير العادي بين كثافة الجبال وكثافة السهول والتي بقيت قوية على مر السنين وإلى اليوم رغم الهجرة إلى المدن الجزائرية الاخرى والهجرة الخارجية.

لكن ارتفاع الكثافة السكانية عموما في كامل الاطلس التلي، لا تعود إلى العوامل الطبيعية فحسب، والتزايد السكاني القوي في تلك المناطق إلى جانب التعمير الاستيطاني الفرنسي خلال منتصف القرن التاسع عشر. لقد كان في كامل المغرب العربي هجرة، تكاد تكون في اتجاه واحد، من الجنوب إلى الشمال. لقد استهوى التل على مر العصور سكان الجنوب بفضل محاصيله المنتظمة، حقوله الرعوية دائمة الخضرة، إلى جانب إمكانية العمل فيه في المدن والقرى. كما كان محط أنظار الاغنياء من مربي البهائم ومجموعات الرعويين من السهوب الذين ينتهي بهم الامر بالاستقرار فيه. لكنه كان كذلك قبلة النجاة خاصة بالنسبة للبؤساء من الناس كمجموعات بشرية او كأسر معدمة هروبا من القحط او طمعا في العيش الكريم. فلا توجد هناك منطقة مهما كانت مغلقة في ظاهرها مثل الترارة والقبائل أو الاوراس إلا عرفت من سكانها من أصول "جنوبية"، اندمجت اليوم بصفة كاملة.

إن هذه الحركية في اتجاه الشمال استمرت وتكثفت بفعل التعمير الاستيطاني والنمو الزراعي للتل وزيادة المدن حجما وعددا. لقد بدأت حركة المهاجرين نحو السهول الخصبة ثم شيئا فشيئا نحو التجمعات الحضرية الاكبر خاصة مدعمة بذلك نزوحا ريفيا بسب فقر وبؤس القرى والمداشر. وتبين الاحصائيات والخرائط انه في تلك الفترة ومنذ 100 عام تقريبا أن تزايد عدد السكان كان اكبر في التل منه في السهول العليا والصحراء.

أما عن منطقة المزاب التي تمثل حالة خاصة على الاطلاق، فإن سكان المزاب، بعد أن عرفوا فترة رخاء وتفوق في تيارت، كعاصمة للدولة الرستمية، ثم في سدراته (في جنوب ورقلة) بين القرنين الثامن والثاني عشر وجدوا مستقرا في منطقة واد مزاب على هضبة قاحلة وشحيحة أين حافظوا على مذهبهم، معتقداتهم، عاداتهم وتضامنهم كأقلية مذهبية. يعيش اهل مدن المزاب من دخول الهجرة المؤقتة للتجارة في شمال الجزائر اكثر من المزارع الصعبة السقي الي لا تساوي عادة الماء المستخدم لسقيها (Mercier M , 1922, 42).

كخلاصة، يمكن الجزم أن تسارع كثافة النسق الحضري في الجزائر تشمل ليس فقط مناطق الساحل بل كذلك المناطق السهبية والسهول ومناطق الهضاب العليا. في الشمال الشرقي من الصحراء الذي يؤوي حقول المحروقات يلاحظ نمو لشبكة

من المدن متسارعة الكثافة وبمدن مختلفة الاحجام.

قائمة المراجع

1. Baudelle G,.Géographie du peuplement. Paris, Armand Colin ,Coll « Cursus-Géographie », 2000, 192 p.
2. Boyer P., « L'évolution démographique des populations musulmanes du département d'Alger, 1830-1866 », in Revue Africaine, n° 4, 1954, pp. 440-441.
3. CNES, La conjoncture du premier semestre 1998: projet de rapport CNES, Alger, 1998
4. Côte M., La ville et le désert, Le bas Sahara algérien, Paris, KARTHALA et IREMAN, 2005. 307p.
5. Despois J., La culture en terrasses en Afrique du Nord. Annale. Paris 1956.
6. Despois J., « La répartition de la population en Algérie », In : Annales. Economies, sociétés, Civilisations, n° 5, 1960, pp 915-926
7. Dorier-Apprill E., Ville et environnement, SEDES, Paris, 2006, 512 p.
8. Guérin-Pace F., Deux siècles de croissance urbaine. La population des villes françaises de 1831 à 1990, ed. Anthropos, Paris,1993, 205 p.
9. Hamdan Khodja., « Le miroir » : Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger, Paris ; Deuxième édition Sindbad, 1983, 319 p
10. Kateb K., Européens, «Indigènes » et Juifs en Algérie (1830-1962), Représentations et réalités des populations, Paris, Travaux et documents, Cahier n° 145, Ed INED, 2001.
11. Kouzmine Y., Le Sahara algérien: Intégration nationale et développement régional, Paris, Editions L'Harmattan, 2012 - 344 p.
12. Lefebvre H., Du rural à l'urbain, Paris, Ed. ECONOMICA, 2001. 299 p.
13. Mercier M , La civilisation urbaine du Mzab, Alger, 1922
14. Moriconi-Ebrard François., L'urbanisation du monde depuis 1950, Editions Anthropos, collection Villes, Paris,1993 , 372 p.
15. ONS, Evolution des populations et des limites communales 1977/1987, Coll Statistique n°22
16. ONS, Evolution des agglomérations 1966,1977 et 1987, Coll Statistique n° 97.
17. ONS,L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213 p.
18. Redjimi M(2000)., De l'empire à l'Etat démiurge : la recomposition du territoire algérien (1830-1990), Thèse de Doctorat en géographie, Université de Montpellier III.